المجلد: 03
العدد: 01
الشهر والسنة: نوفمبر2026
ص ص: 189 - 208

البشرى
للبحوث والدراسات
مجلة علمية دولية سداسية محكّمة
El-Bushra for Research and Studies a half-yearly international peer-reviewed Scientific Journal
ISSN : 2992-1260-EISSN : 3088-8794

مرجعيات النَّص الغائب في خطاب الكتابة الجداريّة بحرب غزة (2023م)

References to the missing text in the graffiti writing discourse of the Gaza war (2023 AD)

د. حسين عمر دراوشة، باحث في علوم اللغة العربية ومعارفها (غزة- فلسطين).

husseindrawchah@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2026/07/20 تاريخ القبول: 2026/08/03 تاريخ النشر: 2020/11/01

ملخص:

تناول البحث بالدراسة والتحليل آليات استدعاء "النّص الغائب" بمرجعياته المتنوعة في خطاب الكتابات الجدارية (الغرافيتي) إبان حرب الإبادة الجماعية على قطاع غزة (2023م)، وتكون من مبحثين رئيسين؛ ركّز الأول على "المرجعيات الدينية والتراثية" عبر رصد واستنباط دلالات الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والرموز الدينية التي خففت من وطأة الفقد المادي وحوّلته إلى رباط عقائدي. فيما عُنِي الثاني بِـ"المرجعيات الأدبية والتاريخية" من خلال تفكيك سيميائية الاقتباسات الشعرية، وأقوال القادة والمثقفين المشتبكين، فضلاً عن العبارات والمصطلحات الشعبية والميدانية الوليدة من رحم المعركة والتي تحولت إلى "أيقونات بصرية" أسهمت في عولمة الخطاب الجداري الغزي وحفظ الذاكرة الفلسطينية من الطمس، ويعتمد البحث على منهجية تكاملية جمعت بين المنهج السيميائي وتفكيك الرموز، ومنهج تحليل الخطاب البصري للصورة الرقمية المتداولة، وصولاً إلى خاتمة ترصد أبرز النتائج والتوصيات وفهرس المصادر والمراجع.

كلمات مفتاحية: النص الغائب، الكتابة الجدارية، حرب غزة، مرجعيات، تاريخية، أدبية.

Abstract:

The research studied and analyzed the mechanisms of invoking the “absent text” with its diverse references in the discourse of graffiti writings during the genocidal war on the Gaza Strip (2023 AD), and it consisted of two main sections; the first focused on “religious and

heritage references" by monitoring and deducing the meanings of Qur'anic verses, prophetic hadiths, and religious symbols that alleviated the burden of material loss and turned it into a doctrinal bond. The second section focuses on "literary and historical references" by deconstructing the semiotics of poetic quotations and the statements of engaged leaders and intellectuals, as well as the popular and field expressions and terms that emerged from the heart of the battle and transformed into "visual icons." These icons contributed to the globalization of the Gazan graffiti discourse and the preservation of Palestinian memory from erasure. The research employs an integrated methodology combining semiotics and symbol deconstruction with visual discourse analysis of circulated digital images, culminating in a conclusion that outlines the most prominent findings and recommendations, along with a bibliography.

Keywords: The missing text, graffiti, Gaza war, references, historical, literary.

1. مقدمة:

يمثل النص الغائب مخزوناً ثقافياً ودينياً وأدبياً وسياسياً يستدعيه خطاب الكتابات الجدارية؛ لينسبك في سياق الخطاب البصري ويندمج معه في إنتاج المعاني العميقة والدلالات الدقيقة التي تتجاوز شكل الكلمات المكتوبة على أنقاض المنازل والركام، فيتحول الجدار في أتون حرب الإبادة الجماعية من حجارة وجمادات صامتة إلى مساحة تعبير ذات قيمة تفاعلية تنشر نصوصاً مستترة وغائبة تعيد تشكيل مفهوم الصمود وصياغة معاني جديدة للمقاومة وتوسيع دلالتها بذوق فني وأدبي مؤثر، وينتقل من فضاء فيزيائي إلى تداول رقمي يعتمد على الصورة البصرية، وخاصة في زمن انتشرت فيه وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي، ويميزه أرباب الإعلام بأنه "عصر الصورة" الذي يكشف عن قيمتها وعمقها وتجليات خطابها المستنطق والمسكوت عنه من خلال ما أنتجته الحرب من صور مضادة وأيقونات وعلامات لها تأثيرها في الخطاب المحلي والعالمي، أمام هذا الطرح والتفكير ظهرت فكرة البحث ومحاوره ومباحثه وتحليلاته.

إشكالية البحث:

تتجسد إشكالية البحث في كيفية تحويل غزة للركام والجدران الآيلة للسقوط إلى منصات اتصالية وبصرية تواجه حرب الإبادة، من خلال استدعاء "نصوص غائبة" (قرآنية، شعرية، تاريخية) وإدماجها في خطاب بصري جداري. تتبلور الإشكالية في التساؤل الرئيس التالي: ما مرجعيات النص الغائب في خطاب الكتابة الجدارية خلال حرب غزة (2023م)؟ وكيف ساهمت

الصورة الرقمية في نقل مرجعيات النص الغائب للكتابات الجدارية في حرب غزة (2023م) من سياقها المحلي تحت الأنقاض إلى فضاء رقمي عالمي أعاد صياغة مفاهيم المقاومة والصمود؟

أهداف البحث: تحليل المرجعيات الدينية والتراثية والأدبية والتاريخية، ومناقشة الكلمة المكتوبة مع البنية البصرية للركام وملامح الخراب والإبادة في إنتاج الصورة المضادة، وكيف ساهم في عولمة الخطاب الجداري في حرب غزة 2023م.

أهمية البحث: الأهمية النّظرية: تقديم إطار نظري يربط النص الغائب بدراسات عصر الصورة والتواصل الرقمي، وتزويد المكتبة العربية بدراسة جادة جديدة يستفيد منها الباحثون والدارسون والجهات ذات العلاقة.

الأهمية التطبيقية: تحليل مرجعيات خطاب الكتابة الجدارية خلال حرب غزة (2023م)، ومناقشة قيمة الصور والأيقونات البصرية التي أنتجها الشعب الفلسطيني في حرب الإبادة الجماعية لتوثيق الصمود والحفاظ على الذاكرة الجماعية والهوية المشتركة للمجتمع الفلسطيني.

منهج البحث: يستنطق البحث خطاب الكتابة الجدارية خلال حرب غزة 2023م من خلال المنهج السيميائي المرئي وتفكيك العلامات البصرية المكتوبة على الجدران، وفحص العلاقة بين الدال والمدلول في إنتاج المعاني العميقة وتوصيل الرسائل والمقاصد، واستخدام منهج تحليل الخطاب البصري بالكشف عن قيمة المعطيات المرجعية وآليات توظيفها وتداولها في الصورة وتأثيرها في التواصل المحلي والعالمي، مع توظيف شواهد من واقع الأحداث والمجريات.

محاور البحث:

- أولاً: المرجعيات الدينية والتراثية.
- ثانياً: المرجعيات الأدبية والتاريخية.

خاتمة البحث فيها النّتائج والتّوصيات والمقترحات، وفهرس المصادر والمراجع.

2. المرجعيات الدينية والتراثية (استدعاء الآيات القرآنية، الأحاديث، والرموز الدينية).

إن المرجعيات الدينية والتراثية لها تأثيرها العميق في التشكيل الدلالي والأسلوبي؛ نظراً لما تمتلكه من قوة حجاجية تدعم قدرة التأثير الإقناعي والإذعان والإقرار والتسليم بالمضمون المتداول في شكل النص ومضمونه، حتى استحضار المعطى الديني والتراثي على مستوى سيميائي وعلاماتي يؤثر في تأثير الخطاب واستقطابه محلياً وعالمياً في سياق خطاب الإبادة الجماعية بحرب غزة (2023م)؛ لذا يرى د. صلاح فضل أن التراث الديني" علاقته وطيدة بأفئدة الناس ووجدانهم والتأثير الكبير الذي يحدثه في نفوسهم، وبالتالي أصبح التناص الديني يشكل منحى هاماً من مناحي القصيدة، وأصبح الشعراء يتعاملون معه كل حسب قراءته للتراث، وقدراته على استيعاب الموروث

وطريقة كل واحد في التعاطي معه، والتفاعل مع التراث الديني يعبر عن ثقافة واسعة متأنية"[1]، وظهرت المرجعيات الدينية والتراثية في استدعاء الآيات القرآنية المرتبطة بطبيعة الأحداث والمجريات، فيؤكد الاقتباس والتضمين والاستشهاد على التعالق النصي[2]؛ لذا تشير النصوص الحاضرة والغائبة في الجداريات إلى عمق الوجدان الديني وسلامة المعتقد وقوة الإيمان في نفوس أهل غزة، وتعزيز سيكولوجية الذات والصمود في ذواتهم وتمسكهم بثوابت قضيتهم انطلاقاً من المرجعيات الدينية والتراثية المتراكمة عبر التاريخ والزمن.

ويرى الناقد الفرنسي جيرار جينيت أن النص الحاضر " يقرأ هو نفسه نصاً آخراً، وهكذا تتداخل النصوص عبر عملية القراءة إلى ما لا نهاية"[3]؛ لذا يوظف كتّاب اللوحات الجدارية خلال حرب غزة استدعاء الآيات القرآنية المحددة التي تؤكد على دلالة الصبر وعظم مكانة الشهادة والإيمان الراسخ بالنصر الإلهي من الله المحتوم لعباده المؤمنين المرابطين على الثغور، والذين يواجهون العدو بثباتهم وجهادهم في وجه الظلم والطغيان، ليمثل النص الغائب الرابط بين التضحيات الحاضرة والوعد الإلهي المستقبلي، ومثال ذلك:

تؤكد الجدارية على حتمية النصر في استدعاء الآية القرآنية في قوله تعالى ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47]، وتتوافق الأيقونات الإشارية مع المضامين الدينية التراثية، وتعضده الآيات القرآنية التي تثبت المؤمنين وتعزز نصرتهم في مواجهة حرب الإبادة الجماعية، ومثال ذلك:

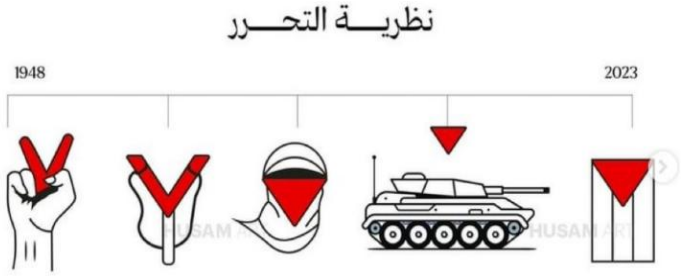

يتّضح أن النص الغائب الكامن في الصور البصرية وتحولاتها الأيقونية والرمزية في حرب غزة يدعم المعنى ويثري الدلالة الدينية والتراثية؛ نحو رمز علم فلسطين، والمثلث الأحمر، وعلامة النصر، والولاعة، والكوفية، حنظلة، وخريطة فلسطين، ورمز البطيخ الدال على علم فلسطين ومناصرة القضية الفلسطينية محلياً وعالمياً، وانتقال ذلك إلى التداول عبر وسائط الإعلام الجديد وتحدي الاستعمار الرقمي، والكتابة ضد خوارزميات التحيز والحظر والتقييد بالذكاء الاصطناعي؛ لذلك تضفي البنية الرمزية والنص الغائب على خطاب الكتابة الجدارية تفاعلات في تتبع المعنى الغائب وتأويل تمثلاته وموضوعاته في سياق الحال وظروف الاستعمال المتعلقة بحرب الإبادة التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني في غزة، ومن منحى آخر لا يعني توظيف المرجعيات الدينية التراثية هروب من الواقع أو الاستناد لعوامل مجهولة؛ بقدر ما هو تعبير عن الذات والوجود وسلامة المبدأ والعقيدة في مجابهة العدوان والتصدي له، والحفاظ على الحق في الحياة وإثبات النفس في ظل حرب المحو والإبادة؛ لذلك يرى باختين أن كل خطاب يدخل في علاقة مع الخطابات السابقة عن قصد أو غير قصد، ويقيم معها حواراً، والخطاب يفهم موضوعه بفضل الحوار"[(4)]، فيبرهن ذلك على التأثير العميق لمعطيات النص الغائب وتمثلاته المضمرة في سياق الخطاب المعلن من خلال الكتابات الجدارية.

إن النص الغائب لم يكن مجرد تفاؤل عابر إنما هو إيمان راسخ ويقين ثابت مرسوم على أنقاض البيوت المدمرة، يؤكد على أن الدمار والخراب والإبادة لن تكسر شوكة إنسان فلسطين، وما زال يتمسك بالأمل والفرج القادم، ومثال الجدارية التالية:

استدعى خطاب الجدارية النص القرآني في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[الشرح: 6]، وتوظيف الدلالة السياقية للصبر في النص الديني الغائب؛ مما يؤكد على المعاني الدينية العميقة المتعلقة بالإيمان وسلامة العقيدة، ويستحضرها سياق الجدارية وتمثلاتها على أرض الواقع وكشفها عن فعل الإبادة والمحو الذي يتعرض له شعب فلسطين، فيدل توظيف "الموروث الديني على تنوع دلالاته واختلاف مصادره شكّل مصدراً إلهامياً ومحوراً دلالياً لكثير من المعاني والمضامين"[(5)]، وكذلك توظيف الآيات القرآنية إلى جوانب صور الشهداء، ومسرد أسماؤهم، والتأكيد على علو منزلة الشهداء؛ نحو الجدارية الآتية:

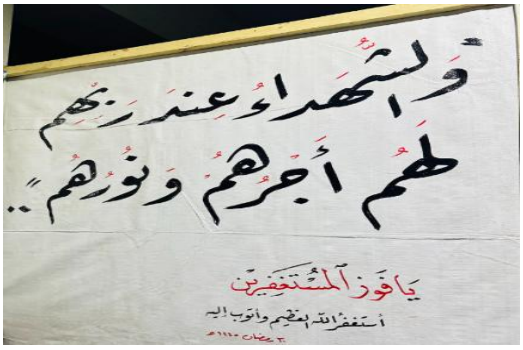

إن توثيق الآيات القرآنية على جدران خيام النزوح يستحضر النص الغائب الدال على الحياة الكريمة والأبدية للشهداء على ثرى فلسطين، الذين يواجهون حرب الإبادة، بالإضافة إلى أن هذه الدلالات والمعاني تعزز الصمود وتمحو فكرة الفناء والزوال الناتج عن الاستهداف والقصف

والتجويع والإبادة الجماعية وممارسات العقاب الجماعي التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني، فذكر شخصية "محمد الضيف" وتوظيفها في الكتابات الجدارية يعبر عن موقف جديد تتجاوز فيه الشخصية حدودها الضيقة وتكتسب أبعاداً معنويةً جديدةً، ويضفي عليها شكلاً آخراً يزيدها حسيةً وبهاءً[6].

يفتح النص الغائب آفاقاً تعبيريةً واسعةً في سياق خطاب الكتابات الجدارية؛ لأنه يمثل بنية تحتية فكرية مضمرة تستحضر لتعويض النقص المادي في ظل الخذلان والإبادة الجماعية؛ مما ينتج قوة روحية وتاريخية، ومثال ذلك الجدارية الآتية:

توحي تجليات النص الديني الغائب بالخلع والقداسة في استدعاء قوله تعالى:﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[طه: 12]، فهذا التوظيف الأسلوبي للتركيب المتناص (فاخلع نعليك) في الجدارية استدعي من نصوص القرآن الكريم، والقصة المشابهة في سفر الخروج بالتوراة؛ لذا ظهر الانزياح الدلالي في النص الأصلي الغائب، يتلقى النبي موسى أمراً إلهياً بخلع نعليه؛ لأن المكان طاهر بالمشيئة الإلهية، أما النص الحاضر بغزة، جرى تحوير الأمر، فلم تكتسب الأرض قداستها من تجلٍ غيبي إنما من فعل بشري بتضحية وفداء يتمثل في اختلاط الثرى بالدم، فتحول نص الآية القرآنية الغائب إلى نص آخر في الكتابة الجدارية؛ لذا تقول جوليا كريستيفا في هذا الصدد" كل نص هو تسرب وتحويل لنص آخر"[7]، فيضفي النص الغائب مسحة إلهية على جغرافية غزة، وخلع النعلين يتحول من طقس تعبدي في الوادي المقدس إلى سلوك واجب نحو تراب غزة وشوارعها التي مشى عليها الشهداء والمقاومين الأحرار، واستدعي في هذا المضمار تناص من الفلسفة العلائية يتمثل في أديم الأرض المستمد من قوله[8]:

خَفِّفِ الوَطْءَ ما أَظُنُّ أَدِيمَ الـ (م) ـأَرْضِ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الأَجْسادِ

يحمل النص الغائب عند أبي العلاء المعري فلسفة عدمية بوصفنا نمشي فوق جثث من سبقونا بآلاف السنين، لكن في سياق الحال بغزة يتحول النص إلى فلسفة تأملية إلى فلسفة واقعية دموية، فلم يتحول الدم إلى تراب بعد بفعل الزمن، إنما هو دم طازج وما زال ينزف لذلك أفصحت الجدارية بقولها (فترابها من دمائنا) مستخدمة صيغة الحاضر والمستقبل.

أمّا النص التاريخي النفسي الغائب المتمثل في صناعة الأسطورة المقاومة المستدعى من قصة أنتايوس في الرمزية الكنعانية المرتبطة بالأرض فكان يستمد قوته غير النهائية كلما وطأت قدمه الأرض، ولا يهزم إلا إذا رُفع عنها، لذلك يرسخ النص الغائب فكرة المواطنة العضوية، فإنسان غزة مخزون ثورة وصاحب تاريخ وحضارة ليس طارئاً على الأرض، بل هو مكون جيولوجي للأرض، كما أن ذلك يتوافق مع قصائد الأرض والتمسك بها في الشعر الفلسطيني نحو شعر توفيق زياد ومحمود درويش "هنا باقون". استدعى حضور الأحاديث والرموز الدينية في سياق خطاب الكتابات الجدارية النص الغائب من خلال توظيف المضامين التي تتحدث عن المشاعر الفضيلة والفروض المقررة على الإنسان المسلم، رغم الإبادة يتمسك إنسان فلسطين بثوابت دينه وعقيدته، نحو صوم رمضان، ومثال جدارياته:

ورد إلى جوار رمز علم فلسطين، ورمز الهلال والفانوس كعلامة سميائية على حول شهر رمضان الفضيل، ويأتي النص الغائب في مكانة وقيمة هذا الشهر في نفوس المؤمنين والطقوس الدينية التي يقومون بها في ظلال شهر الرحمة والمشاعر الإيمانية الراقية، وإحياء المضامين الدينية المنظمة للحياة الاجتماعية نحو الجدارية المكتوبة على جدران الخيمة، وفيها اقتباس من نص الحديث النبوي الغائب:

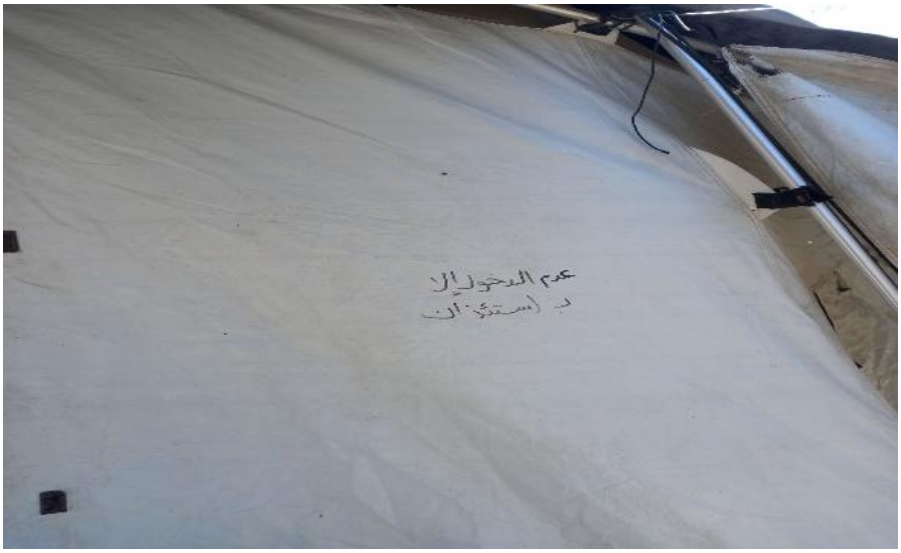

واستحضار الاقتباس التراثي الديني المتمثل في عبارة (حسبنا الله ونعم الوكيل)؛ نحو ما ورد في سياق خطاب الجدارية الآتية:

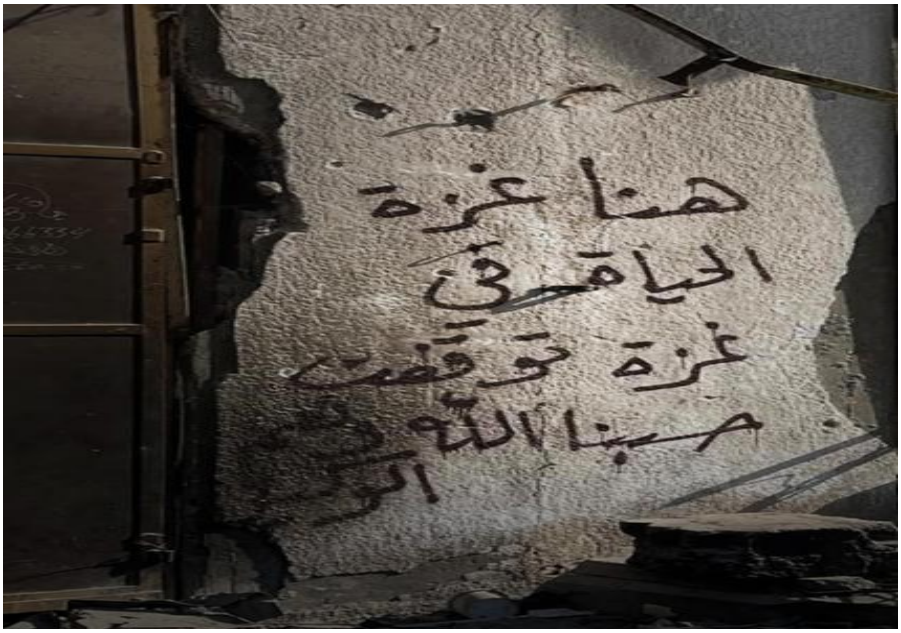

يدل ذلك على رمزية التعبير في سياق الشعور بالخذلان وقلة النصير، وانقطاع الرجاء من البشر، وتفويض الأمر لله الواحد الدّيان، وفي ذلك إعادة إنتاج لما كان عليه النبي إبراهيم (عليه السلام) عندما ألقى به الكافرون في النار، وتمثلاً بإسوة الرسول محمد (ﷺ) في مواجهة الأحزاب والمشركين، فيرى الناقد عبد الملك مرتاض" حدوث علاقة تفاعلية بين نص سابق ونص لاحق

لإنتاج نص لاحق"[9]؛ لذا يتميّز النص الغائب ببنية تفاعلية في خطاب الكتابات الجدارية، خاصة في ظل الإبادة وبيئة النزاع والأزمات الطارئة في حياة غير مستقرة على الإطلاق.

يتّضح مما سبق أن فعل الكتابة على الجدران هو فعل مقاوم صامد يتمسك بتراب وطنه ولا يتنازل عنه، ويمارس الكاتب عملية مقدس بديل في ظل غياب الحماية الدولية وقلة المناصرة، واستمرار الإبادة في استباحة الإنسان ومحوه وطمس معالمه وتخريب ممتلكاته وتدمير المدارس والمستشفيات والمساجد، يعود الإنسان ليتمسك بتراب الوطن بوصفه خط الدفاع الأخير، فيحول استدعاء النص الغائب المشهد من كارثة إنسانية ومقبرة جماعية للضحايا الأبرياء العزل إلى محراب شهادة كبير؛ فيصبح الموت نفسه أداة لتطهير الأرض وتقديسها، وليس لإنهاء الوجود والفناء.

3. المرجعيات الأدبية والتاريخية (اقتباسات من الشعر العربي، و أقوال القادة والمثقفين مثل غسان كنفاني ومحمود درويش).

تعد الثقافة الشعبية والأدب العربي والفلسطيني مظلة فكرية يستند إليها خطاب الكتابات الجدارية خلال حرب غزة (2023م)، فتتحول الاقتباسات وأقوال المفكرين إلى سلاح رمزي لمواجهة حرب الإبادة، فيعكس ذلك وعياً جماعياً متأصلاً في أعماق الذاكرة التاريخية والتراثية عند أبناء الشعب الفلسطيني، ومن منظور آخر يرى رولان بارت أن من " المراجع والأصداء لغات ثقافية سابقة أو معاصرة، تتجاوز النص من جانب إلى آخر في تجسيمة واسعة"[10]، ومن هذا المنطلق ظهرت اقتباسات من شعر الإمام الشافعي ابن غزة، نحو الجدارية الآتية:

تستحضر الجدارية النص الغائب الدال على المكانة العزيزة للمقاومين المحاصرين في مدينة رفح لأكثر من عامين، واستفردت بهم الاحتلال وأعوانه، ويُلاحظ أن مصدر الاقتباس استند إلى قول الشافعي[11]:

تَمُوتُ الأُسْدُ فِي الغَابَاتِ جُوعاً وَلَحْمُ الضَّأْنِ تَأْكُلُهُ الكِلابُ

يتضح الاستبدال المعجمي في الجدارية الذي حوّر وعدّل البيت، فأخفى كلمة (الغابات) مستحضراً (أنفاق رفح)، فهذه الاستبدالات المعجمية واستدلالاتها وتصوراتها الأسلوبية تدعم حضور النص الغائب ودلالاته المباشرة المؤثرة في توصيل الرسالة المعلنة والمضمرة في خطاب

الكتابات الجدارية خلال الإبادة الجماعية التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني في غزة، ويمثل الاستدعاء العميق " توظيف النصوص في نص ما يقف على قدرات الكاتب، وهذا لأن النصوص الأخرى المستعادة في النص تتبع مسار التبدل والتحول، حسب درجة وعي الكاتب بعملية الكتابة ومستوى تأمل الكتابة لذاتها"[12]. ولم ينقطع النص الغائب في سياق خطاب الإبادة الجماعية وإثبات الصمود والوجود بالكتابات الجدارية خلال حرب غزة (2023م) عن العالم المحيط رغم العزلة والخذلان والشعور بالاغتراب من جراء قلة النصير، فاستحضر النص الغائب البعد العربي والقومي نحو الجدارية الآتية:

استند النص الغائب لقول الشاعر السوري عادل نايف البعيني في استحضار الدلالة الغائبة التي تؤكد على مكانة الشهداء ودورهم في التضحية والفداء ومجابهة الاحتلال الغاصب،

ويظهر ذلك الدلالات الوطنية والقومية التي يشارك فيها إنسان فلسطين وجدان الأمة الإسلامية والعربية، وجاء هذا التناص من قصيدة " الشهداء" للشاعر عادل البعيني[13]:

يا فارساً عرشَ العُلا تترَبَّعُ	صُمُّ الجبالِ أمامَ عزمِكَ تَركعُ
أذللْتَ حُبّاً للحياةِ ونزعةً	وَهَبْتَ طوعاً عنْ دِيارك تَدْفعُ
ظَمِئَتْ جراحُك للعُلا فسَقَيْتَها	نبلاً ومَجْدا بالشَّهادَةِ يُتْرَعُ
وَسَعَيْتَ للأَمجادِ تَطْرُقُ بابَها	بابُ الشَّهادةِ خيرُ بابٍ يُقْرَعُ

يمثل استدعاء النص الغائب بالمرجعيات الأدبية والتاريخية تواصلاً تفاعلياً؛ لأن " النص ينتج ضمن بنيته نصية سابقة، وهو ما يتعالق بها، ويتفاعل معها، تحويلاً أو تضميناً أو خرقاً، وبمختلف الأشكال تتم بها هذه التفاعلات"[14]؛ لذا يحمل النص الغائب رسائل ومقاصد الصمود والمقاومة والثبات على ثرى هذه الأرض، وعدم التخلي عنها رغم الإبادة الجماعية والتطهير العرقي والعقاب الجماعي الذي يطبقه المحتل على الأبرياء والعزل، نحو الجدارية الآتية:

وظفت الجداريات النص الغائب للدلالة على الصمود والثبات من كلام الكاتب والروائي الفلسطيني أدهم شرقاوي، وخاصة أن هذه الجدارية مرسومة على جدار المستشفى الأهلي المعمداني بقطاع غزة والذي تعرض بداية الحرب لاستهداف مباشر ذهب ضحيته أكثر من 500 شهيد، وخطّ هذه الجدارية الفنان والرسام التشكيلي الفلسطيني فاضل طافش، فوجود هذا الاستحضار النصي وإثبات الفنان فعله الإبداعي على الجداران الصامد بلغة صامتة لها ترابطاتها وتعالقاتها وتشابكاتها يوصل دلالة الثبات والصمود علاوة على الكلام المثبت والمنطوق، فيتوافق المنطوق مع المضمر في تداولية الخطاب وإنتاج الدلالات التي تواجه خطر الإبادة والمحو اللساني في

ظل عملية الإبادة الجماعية التي يقوم بها الاحتلال الإسرائيلي بغزة، وتظهر معطيات النص الغائب في خطاب الكتابة الجدارية في عملية "استبدال نصوص أخرى في فضاء النص تتقاطع أقول عدة مأخوذة من نصوص أخرى"[15]، فهذا الاستحضار المعلن والمضمر وتوليد نصوص جديدة يمثل فعلاً للصمود وإثبات الحق في الحياة أمام الإبادة الجماعية وممارسات العقاب الجماعي.

استنطقت الجداريات الأغنية الشعبية "وين الملايين؟!" التي تمثل شعوراً ثورياً في زمن الانتفاضة التي واجه فيها الإنسان الفلسطيني المحتل، فكان الصدى الوجداني لهذه الأغنية يستدعي روح المقاومة ويستنهض الهمم ويشعل الحماس في نفوس الأبطال، فهذا ارتباط بالأدب الشعبي ودوره في التثوير وتشكيل الوعي حول الصمود وإعادة تشكيل الواقع وحماية الذاكرة الجماعية من الإبادة والمحو، فيتوافق ذلك مع فلسفة النص الغائب الدالة على " العلاقات الحاصلة بين أحد النصوص ونصوص أخرى يُستشهد بها، يعيد كتابتها يمتصها، يوسعها، أو بصفة عامة يقوم بتحويلها، ويغدو على ذلك معقولاً"[16]، ومثال ذلك:

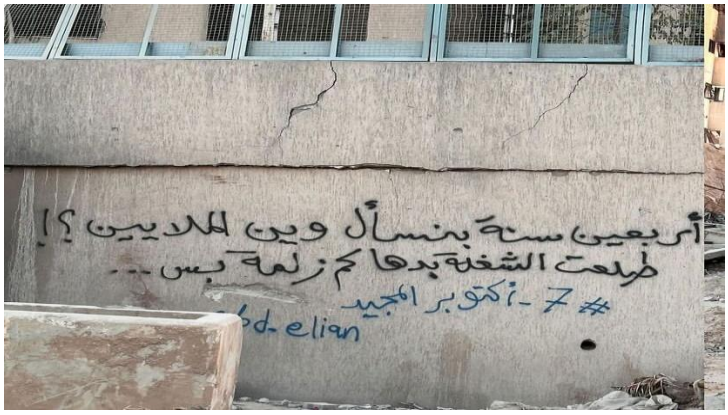

تحمل هذه الجدارية دلالة تنويرية واعية مبنية على ربط التراكم الوجداني والزماني والتاريخي بالحس الأدبي الغنائي من منظور شعبي، ويحمل ذلك مراجعة معلنة ومضمرة للذات من خلال ربط المجريات ببعضها وتراكماتها التاريخية بالحدث الحالي الذي يمثله السابع من أكتوبر، بهذا يخدم المعطى الطولي للجنس الأدبي وتأثيراته بالإضافة على المعطى المقطعي الحالي؛ مما يخدم منهج الدراسات الطولية والمقطعية في تتبع التأثيرات والتأويلات والتمثلات والتجليات والمعادلات السياقية والموضوعية والبنيوية والأسلوبية والسيميائية وما يتصل بها من تحولات تخدم فعل القراءة والتلقي ومعطيات التفاعلية واستراتيجيات القراءة وتطبيقاتها في استنطاق الصور البصرية وعلاماتها السيميائيةوترميزاتها وأيقوناتها؛ ويأتي ذلك في تشكيل نصي يدمج أو يكثف أو يوسع الدلالة والتصور بقصد التوليف الدلالي وإثراء المعنى وتعضيد البناءات النصية[17].

يحضر محمود درويش في الكتابة الجدارية بحرب غزة (2023م)، بلغته الدرويشية الراسخة في الوجدان الجمعي للشعب الفلسطيني، فظهر كصوت للإنسان والهوية والوطن، فتحولت كلمات الموت والفناء واللجوء إلى فلسفة صمود وتحدي، ومثال ذلك الجدارية الآتية:

إن هذه الجدارية تستحضر النص الغائب الدال على إرادة التماسك وحب الحياة، فيؤكد قول درويش ومضمونه بأن على هذه الأرض ما يستحق الحياة، فتكون رائحة الخبز وأول الحب وأول الخريف بالإضافة إلى اسم كاتب الجدارية (ياسر أبو حرب) شكلاً من أشكال الصمود والثبات، ومقاومة الإبادة التي تمحو كل طقوس الحياة وتحكم على الشعب بالفناء، لذلك كان حاضراً فعل الثبات والصمود، كما في الجدارية التالية أيضاً:

تحول النص الغائب إلى تكثيف دلالي يستدعيه الكاتب لتقوية الأثر والتفاعل[18]، واستكماله يوصل الرسالة والمقصد من نص خطاب الكتابات الجدارية بحرب غزة (2023م)؛ واستدعى النص الغائب من قصيدة مشهورة للشاعر السعودي مهذل الصقور، يقول فيها[19]:

أَتَظُنُّ أَنَّكَ عِنْدَمَا أَحْرَقْتَنِي وَرَقَصْتَ كَالشَّيْطَانِ فَوْقَ رُفَاتِي

وَتَرَكْتَنِي لِلذَّارِيَاتِ تَذُرَّنِي كُحْلًا لِعَيْنِ الشَّمْسِ فِي الْفَلَوَاتِ

أَتَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ طَمَسْتَ هُوِيَّتِي وَمَحَوْتَ تَارِيخِي وَمُعْتَقَدَاتِي

تضيف دلالة النص الغائب بعداً ثورياً وتنويرياً يتوافق مع طبيعة السياق الخطابي واستدلالاته وإيحاءاته التي تتوافق مع سياق الحال وظروف الاستعمال اللغوي؛ مما يثري النص الشعري ويوصل رسالته بشكل تفاعلي له ترابطاته وتعالقاته وتشابكاته، ومثال ذلك أيضاً الجدارية

التالية:

تحولت الكتابة على القماش والجدران في بيئة النزاع إلى فعل متجدد للمقاومة وحفظ الذاكرة الجماعية والهوية المشتركة للمجتمع الفلسطيني في ظل الإبادة الجماعية، فيظهر التناص مع الشعر العربي الحديث من قصائد تميم البرغوثي في قوله (يا مدرك الثارات ... أدرك ثأرنا)، من قصيدة يقول في مطلعها[20]:

يا مُدْرِكَ الثَارَاتِ أَدْرِكْ ثَارَنا وَاْحْفَظْ عَلَى أَوْلادِنَا أَخْبَارَنا

قَدِ أعْتَبَرْنَا المَوْتَ ضَيْفَاً زَارَنا قُمْنَا وَقَدَّمْنَا لَهُ أَعْمَارَنا

حوّل الفنان أحمد الطلاع جدار خيمته إلى لوحة فنية في دير البلح، فاستدعى النص الغائب بشكل مباشر لقصيدة الشاعر الفلسطيني تميم البرغوثي، لم يكن الغائب مجرد كلمات إنما حالة شعورية للقصيدة التي تتحدث عن استقبال الموت كضيف بكل شجاعة وثبات، تسقط العبارة البعد التراثي للثأر بمفهومه القلبي القديم وتحوله إلى معطى أدبي يرمز للمطالبة بالعدالة التاريخية والقصاص واستمرار الحكاية للجيل القادم بدليل قوله "واحفظ على أولادنا أخبارنا"، فيمثل التناص تفاعلاً نصياً[21]، يؤثر في توجيه الدلالات في خطاب الكتابات الجدارية بحرب غزة 2023م.

وظهر استدعاء أدب غسان كنفاني صوت الرفاق والوعي، من خلال ما خطه الكاتب" ابتسموا يا رفاق نحن لسنا بخير، ولكن نسعى ما حيينا أن نكون بخير"، يتجلى النص الغائب في الروح القادمة من أدب المقاومة الفلسطيني وتحديداً أدب غسان كنفاني، فيحيل توظيف تركيب (يا رفاق) السياق الأدبي الفلسطيني إلى رسائل فكرية وحزبية وروابط الرفاق التي صاغها غسان كنفاني وماجد أبو شرار، فالمفارقة الأدبية تتمثل بين الأمر بالابتسام والضحك والاعتراف بالحال السيء؛ مما يعكس بشكل أدبي مفهوم " الأمل الثوري" أو مفهوم "التشاؤم المقاوم"، فلا يمكن تزييف الواقع المرير إنما مواجهته بالثبات والصمود والإرادة.

ويظهر تحوير كلام الشاعر محمود درويش واستدعاء أدب المدن المكلومة في قول الكتاب " سلام لمدينة خلقت للسلام ... ولم ترَ السلام يوماً"، فيظهر النص الغائب في اقتباس مستوحى من كلام درويش ونصوصه النثرية في وصف المدن الفلسطينية كالقدس وغزة في مواجهة الحصار والتضييق والاستهداف، فتعتمد البنية الأدبية على الطباق والمقابلة بين (سلام) و(لم ترَ السلام)، ويسلط الأسلوب الدرويشي الضوء على فجوة بين الواقع القاسي الذي تعانيه مدينة غزة، وبين جوهر المدينة الإنسانية الراقية التي تمنح الحب والسلام والإنسانية، فتوظيف النص الغائب واستدلالاته يستحضر كاتب الجداريات " نصوصاً من مخزونه الثقافي، والذي يختلف عما يملكه الكاتب أثناء الكتابة"[22] كما يرى رولان بارت، فيزداد العمق الثقافي للممارسة النصية ومعطياتها في سياق خطاب الفن الجداري.

وتظهر الجدارية في النص الغائب تقنية المونولوج الداخلي والرسائل الموجهة التي برع فيها إبراهيم طوقان وعبد الكريم الكرمي "أبو سلمى"، في قول الكاتب (سنعود يوماً يا غزة ... طال الزمان أو قصر" مكتوبة بشكل مصغر ومحورة، فيتجلى استدعاء النص الغائب من أدب العودة واللجوء، فيجسد تياراً أدبياً كاملاً تأسس مع النكبة على أيدي شعراء من أمثال طوقان وأبو سلمى وهارون هاشم رشيد في قصيدته المشهورة "عائدون"، فيقلب النص الغائب المعادلة؛ لأن العودة

المتعارف عليها تكون للوطن من الشتات، بينما فعل الكتابة عنا يحدث داخل غزة من نزوح إلى نزوح؛ مما ينتج دلالةً أدبيةً جديدةً تعبر عن البلاد المفقودة داخل البلاد نفسها، خاصة مع وجود الخط الأصفر واحتلال أكثر من 60% من مساحة قطاع غزة.

تتقاطع اللوحة الجدارية بلغتها البصرية الصامتة مع نصوص أدبية وتاريخية غائبة تعيد صياغة مشهد الدماء والخراب إلى معطى رمزي ملحمي للصمود والثبات والاستمرار، فتكشف الجداريات عن قيمة النص الحاضر والغائب والقديم والجديد على السواء[23]، ومثال ذلك الرسم الجداري الآتي:

يتمثل النص الأصلي في طائر العنقاء الكنعاني الذي يولد من الرماد، بينما يتجلى النص الغائب في الفتى المرسوم بأجنحة بيضاء يقف فوق البيوت المدمرة، يحمل تناصاً مع فكرة الشهيد الحي الذي يرتقي فوق الخراب والدمار والموت المادي، تحول الأجنحة البيضاء الضحية من مجرد جسد تحت الأنقاض على كائن ملائكي يحلق يتمسك برمزية الراية ومكانتها الوجدانية؛ مما يؤكد فكرة الانتصار الروحي والتعالي على الدماء والخراب العظيم، ويحمل روح التمرد والرفض ضد فعل الإبادة الجماعية.

وتظهر في النص الحاضر الثقافة الأدبية الشعبية والتراثية في الثوب الفلسطيني المطرز وأشعار الأرض نحو قصيدة محمود درويش " على هذه الأرض ما يستحق الحياة"، بينما يتجلى النص الغائب في وقوف الطفلة بالثوب الفلسطيني المطرز الكنعاني وسط الركام الرمادي يرفض الموت والاندثار، وسيميائية الألوان الحية في الثوب والرسمة "الأخضر والأسود والأحمر" تواجه نص الموت والرماد المحيط بها، الطفلة لم تكن شاهداً إنما هي امتداد لجيل قادم وتأكيد على سيرورة التاريخ الذي لا ينقطع بالرحيل ويؤكد ذلك الفتى المحلق بجناحيه يأبى الموت والفناء.

أمّا من ناحية أدبية فنية فيتجلى النص التاريخي الأيقوني الغائب في أيقونات المقاومة الشعبية العالمية، نحو لوحات وأيقونات عالمية تتحدث عن الحرية والثورة كلوحة الفنان الفرنسي يوجين ديلاكروا المعنونة بِـ " الحرية تقود الشعب"، وتتجلى تفاعلية النص الغائب في حركة الفتى الذي يحمل علماً بيد واحدة، ويرتفع فوق الركام، وينظر للأمام بصمود وثبات، فيها محاكاة لأيقونات الحرية التاريخية للتحرر، بينما النص الغائب يرفع الحدث المحلي بغزة ليكون فعلاً نضالياً يتصل بالنضال العالمي الإنساني لأجل الحرية؛ فيتحول العلم من مجرد قطعة قماش إلى رمز جامع للسيادة والوجود، فيمثل النص الغائب دليلاً وفعلاً للحياة، فيرى الناقد محمد بنيس بأنه " دليل لغوي معقد أو لغة معزولة، شبكة فيها عدة نصوص فلا نص يوجد خارج النصوص الأخرى أو يمكن أن ينفصل عن كوكبها"[(24)]، يتضح أن نسقية الحدث والموضوع لها حضورها في فهم المعطيات والتمثلات التي ترتبط بوجدان الشعب الفلسطيني.

4. الخاتمة:

تتبع البحث بالتحليل والنقد ظاهرة الكتابة الجدارية (الغرافيتي) في حرب غزة (2023م)، بوصفها خطاباً بصرياً واتصالياً مشتبكاً مع الواقع، وسعى البحث إلى استنطاق الأبعاد الجمالية والدلالية للمرجعيات المتنوعة التي شكلت "النص الغائب" المندمج في بنية الركام والأنقاض، وعبر توظيف المنهج السيميائي ومنهج تحليل الخطاب البصري، خلص البحث إلى جملة من النتائج والتوصيات على النحو الآتي:

أولاً: النّتائج.

1. تحول الحيز الفيزيائي لجدران غزة خلال الحرب من كونه بنية مادية صامتة أو ركاماً إسمنتياً ناتجاً عن الدمار، إلى فضاء اتصالي وتفاعلي ينبض بالحياة، ويعيد صياغة الذاكرة البصرية التوثيقية للمكان.
2. تشكلت مركزية المرجعية الدينية في استدعاء الآيات القرآنية والأحاديث النبوية درعاً نفسياً وعقائدياً حوّل دلالات الفقد واللجوء والموت إلى مفاهيم صمود، واحتساب، ورباط؛ مما منح الحاضنة الشعبية طاقة استمرارية ومواجهة.
3. كشف امتداد الوعي الثقافي والتاريخي في تحليل المرجعيات الأدبية والتاريخية (مثل اقتباسات درويش، وكنفاني، والبرغوثي) عن تراكمية الوعي الفلسطيني؛ فالكتابة على الجدران عام 2023م لم تكن معزولة عن سياق نكبة 1948م، بل كانت امتداداً تاريخياً حياً لخطاب المقاومة الثقافية.

4. ساعدت عولمة الخطاب البصري عبر الرقمية على انتقال الجدارية من فضاء غزة الفيزيائي المحاصر إلى الفضاء الرقمي وعبر منصات التواصل الاجتماعي في عولمة الخطاب، وتحويل العبارات المحلية والميدانية العفوية إلى "أيقونات بصرية" و"صور مضادة" فككت الرواية الإعلامية السائدة للعالم.

ثانياً: التوصيات

1. ضرورة توثيق الأثر البصري بإشراف الجهات والمؤسسات الثقافية والأكاديمية من خلال إنشاء أرشيف رقمي منظم وموثق لجميع الجداريات والكتابات التي خُطت على أنقاض غزة خلال الحرب، لحمايتها من الاندثار وطمس معالمها بالهدم التام.
2. توسيع المظلة البحثية من خلال دعوة الباحثين في حقول السيميائيات، وعلم اجتماع الأزمات، والإعلام الرقمي إلى الالتفات نحو "الفنون الوليدة من رحم الحروب" في فلسطين، ودراستها كأدوات نضالية غير تقليدية.
3. إدراج الأدب الجداري في المناهج التعليمية والتوصية بالاهتمام بأدب الجدران (الغرافيتي) في المساقات الجامعية المعنية بتحليل الخطاب والبلاغة الجديدة (البلاغة البصرية)، لما ينطوي عليه من تكثيف دلالي وبلاغي يستحق الدراسة.

5. الهوامش والإحالات.

(1) فضل، صلاح(2002م): إنتاج الدلالة الأدبية، مركز الحضارة العربية، ط2، القاهرة، ص493.

(2) يقطين، سعيد(1989م): انفتاح النص الروائي(النص والسياق)، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب، ص98.

(3) مباركي، جمال(2003م): التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، منشورات دار هومة، الجزائر، ص149.

(4) باختين، ميخائيل(2003م): الخطاب الروائي، ترجمة: محمد براءة، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، ص91.

(5) البنداري، حسن(2009م): التناص في الشعر الفلسطيني المعاصر، مجلة جامعة الأزهر بغزة، العلوم الإنسانية، عدد2، ص247.

(6) عيد، رجاء(1998م): لغة الشعر: قراءة في الشعر العربي المعاصر، منشأة المعارف، ط1، الإسكندرية، ص28 والعلاق، علي(1997م): الشعر والتلقي: دراسة نقدية، دار الشروق، ط1، عمّان، ص131 والبستاني، صبحي(1986م): الصورة الشعرية في الكتابة الفنية، دار الفكر اللبناني، ط1، بيروت، ص194.

(7) البقاعي، محمد(1998م): دراسات في النص والتناصية، مركز الإنماء الحضاري، سوريا، ص60 والبادي، حصة(2009م): التناص في الشعر العربي الحديث، دار كنوز المعرفة، ط1، الأردن، ص20.

(8) المعري، أبو العلاء(1957م): ديوان سقط الزند، دار بيروت وصادر، ط1، لبنان، ص7.

[9] لوشن، نور المدى(2012م): التناص بين التراث والمعاصرة، مجلة جامعة أم القرى، قسم الشريعة واللغة العربية وآدابها، جزء 15، عدد 26، ص1023.

[10] المناصرة، عز الدين(2006م): علم التناص المقارن(نحو منهج عنكبوتي تفاعلي)، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، ص52.

[11] الإمام الشافعي، محمد بن إدريس(1995م): ديوانه، تحقيق: عمر الطبّاع، دار الأرقم، ط1، بيروت، ص43.

[12] بنيس، محمد(1988م): حداثة السؤال، المركز الثقافي العربي، ط2، بيروت، ص85.

[13] البعيني، عادل(2018م): قصيدة الشهداء، موقع بوابة الشعراء، بتاريخ: 12 ديسمبر 2018م، الرابط: https://poetsgate.com/poem

[14] عزام، محمد(2001م): النص الغائب: تجليات التناص في الشعر العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط1، سوريا، ص53.

[15] بن مخلوف، يحيى(2001م): التناص: مقاربة معرفية في ماهيته وأنواعه وأنماطه، منشورات اتحاد كتاب العرب، سوريا، ص37.

[16] برنس، جيرارد(2003م): قاموس السرديات، ترجمة: السيد إمام، ميرميت للنشر والمعلومات، ط1، القاهرة، ص98.

[17] مفتاح، محمد(1992م): تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، ط3، المغرب، ص121.

[18] ناهم، أحمد(2007م): التناص في شعر الرواد، دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة، ص19.

[19] الديوان(نت): مهذل الصقور "أتظن أنك عندما أحرقتني"، https://www.aldiwan.net/poem119263.html

[20] البرغوثي، تميم(2015م): يا مُدرِك الثَّارات، موقع العربي الجديد، بتاريخ: 28 أكتوبر 2015م، الرابط: https://www.alaraby.co.uk/

[21] يقطين، سعيد(1999م): التفاعل النصي والترابط النصي بين النظرية النص والإعلاميات، مجلة علامات في النقد، مجلد 8، جزء 32، ص218.

[22] الزعبي، أحمد(2000م): التناص نظرياً وتطبيقياً، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، ص13.

[23] عبد المطلب، محمد(1995م): قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، 136.

[24] بنيس، محمد(1988م): حداثة السؤال، المركز الثقافي العربي، ط2، بيروت، ص85.